فى البدء كان العلم

منذ فجر التاريخ عندما فكر الإنسان ولاحظ ما يجرى حوله من شروق الشمس وغروبها وتوالى الليل والنهار، وسقوط الأمطار وحدوث الزلازل والبراكين. كان لابد وأن يصنع تعريفا وتحليلا لكل هذه الظواهر ويجتهد للتعرف على الأسباب. حسب ما أتيح له آنذاك. وهداه فكره إلى أن عملية الشروق تتم بسبب نقل الشمس ليلا على قرن حيوان أسطورى ضخم، لتشرق من ناحية الشرق صباح كل يوم، وبعد عدة آلاف من السنين. بدأ يلاحظ أن هناك دوران للأجسام السماوية حول الأرض. فاقتنع أن الأرض هى مركز الكون. والكون يدور حولها. ثم هداه علمه وبحثه بعد عدة ألوف أخرى من السنين إلى قناعة أن الشمس هى مركز مجموعتنا الشمسية. ووصل فى النهاية إلى فكرة أو أفكار مقبولة ساعدته على مزيد من التقدم.

لم يكتف الإنسان بتفسير الظواهر الطبيعية بل تجاوز ذلك إلى التفكير فى فلسفة الحياة وبداية الحياة على الأرض والخلود. وهل للكون بداية وهل له نهاية، وبذلك بدأ الإنسان يسجل مفردات ولغات وقراءة وكتابة التاريخ. لكنه فى كل الأحوال كان خائفا ويشعر بالضياع وقد أدرك النهاية المحتومة بالموت لكل البشر والكائنات، فبدأت الأديان وفكرة الحياة الأخرى بعد الموت. وفى خضم محاولة إيصال الخلود إلى الإنسان عن طريق حياة أبدية بعد الحياة الأرضية الدنيوية. بدأت تتشكل

أفكار البشرية مثل الحب والتضحية و الفضيلة والفداء والصبر والخضوع والرضا، وغيرها من الأفكار التى يمكن أن تجعل الإنسان يسمو بإنسانيته، وبالتوازى مع ذلك نشأ أجمل ما أبدعه الإنسان وهو الفن، ليحول الحياة الأرضية المادية الدنيوية إلى حياة تتسم بالجمال والخلود والاستمتاع بكل ما فى هذه الحياة من حلوها ومرها.

الخوف والفلسفة

يبقى الخوف دائما عند الإنسان شعورا دائما ومستقرا، وقائما على دلائل مثل الفناء، وثوران وفوران الأرض والبحر وغضبهما بين الحين والآخر، وظلام الليل الدامس المحيق حولنا، وهى جميعا ظواهر لا تتوقف على سطح الأرض، ربما كان الخوف عاملا مساعدا على التطور والتقدم فى أحيان، ولكن فى أحيان أخرى يكون عاملا مساعدا على التخلف. وفى كل الأحول ظل التطور فى كل مناحى الحياة الإنسانية رتيبا بطيئا منذ الأزل وحتى القرنين الماضيين، لدرجة أن كل كيان بشرى أو إمبراطورية كانت تتكون فى القدم، كان يعتقد القائمون عليها أن هناك ديمومة لكل شىء على سطح الأرض، ولا يوجد أى تغير، عدا شىء واحد هو توارث وتوارى الأجيال بعضها لبعض، وجاء هذا الإحساس نتيجة للإحساس بالبطء الشديد فى عملية التطور على مر العصور.

على أن الحياة على الأرض شهدت طفرة غير مسبوقة خلال القرنين الأخيرين، فمثلا كانت سرعة الإنسان وقدرته على التنقل بالمشى أو الجرى على الأقدام بضعة كيلومترات فى الساعة، ثم زادت سرعته باستخدام الدواب، واستمر الحال كذلك طوال التاريخ

حتى حدثت الطفرة وزادت بصورة طفرية بصناعة السفن والمركبات، لتصل السرعة إلى أكثر من ١٠٠ كيلومتر فى الساعة. وفى العقود الأخيرة طفرت البشرية طفرات أخرى بتطور صناعة الطائرات والصواريخ التى جعلت قدرة الإنسان على التنقل تصل إلى ٣٠ ألف كيلومتر فى الساعة، حيث تم إطلاق المكوك الفضائى أتلانتك وعلى متنه مجموعة من الرواد بتلك السرعة، حدث ذلك فى ١٠ يوليو ٢٠١١ فى إحدى رحلات أتلانتيك المكوكية بين الأرض وبين محطة الفضاء الدولية (من المعلوم أن تلك الرحلة كانت آخر رحلات هذا المكوك قبل إيداعه إلى المعاش لبلوغه السن القانونية، ومن المعلوم أيضا أن تلك الرحلة قد استغرقت حوالى عشرة أيام).

ورغم أن الإنسان الآن أكثر تطورا وأكثر أنسانية عن ذى قبل، إلا إنه مازال يقاتل بعضه بعضا، ومازلنا نجد جيوشا تتحرك ضد جيوش أخرى من أجل أحلام التوسع أو السيطرة، وأحيانا أهل الجنسية الواحدة يقومون بقتل بعضهم البعض، وخير دليل على تلك الوحشية ما شاهدناه فى الحروب الأهلية فى الجزائر ولبنان، وما وقع من قمع أثناء ثورات الربيع العربى وخاصة فى ليبيا وسوريا واليمن، وما وقع فى مصر من فوضى وقتل أثناء وبعد ثورة ٢٥ يناير من مذابح ليقتل الأخ أخيه من أجل أهداف أحيانا غير مجدية أو غير مفهومة. إن حب السيطرة قد أعمى البشر، وهو ما جعلنا قد نقتنع أن شركائنا فى الحياة على الأرض من حيوان ونبات وطيور وأسماك أكثر رحمة فى سلوكهم مع بعضهم البعض من بنى البشر. الحيوان يأكل النبات، والنبات يستجيب بدون مقاومة، والإنسان يأكل الحيوان والنبات وغيرهما. أما النبات الأكثر

عطاء وتسامحا لا يأكل إلا من الشمس والهواء والماء. صحيح أن النبات يحتكر جزءا كبير من مساحة الكرة الأرضية فى صورة غابات شاسعة ومنها المتوحشة. صحيح أن النبات يحمى نفسه بأن يجعل وجوده مهما لنمو الحياة الإنسانية والحيوانية على سطح الأرض بأن ينتج الأكسجين. إلا إنه يمكن القول إنه مازال الأكثر عطاء وتسامحا.

منذ حوالى ٧ آلاف سنة كان حوض النيل لا يسكنه إلا الحيوانات والنباتات المتوحشة والطيور الجارحة، قبل أن يستوطن الإنسان المصرى وادى النيل قادما من الصحراء الغربية المصرية التى كان المصرى يسكنها لأكثر من ٢٠ ألف سنة قبل حضارة وادى النيل (الحضارة الفرعونية). رحل الإنسان المصرى من الصحراء الغربية إلى وادى النيل بعد أن نضبت الموارد والمياه فى الصحراء الغربية بسبب التصحر والتغير المناخى طويل الأجل الذى يحدث بصورة درامية مرة كل ٢٢ ألف سنة. ليصنع أعظم حضارة عرفتها البشرية على ضفاف النيل. فهل هذا الشعب المتجزر الأصول غير قادر الآن على النقلة النوعية فى سبيل التحضر، ليجر معه المنطقة العربية إلى بدايات عالم جديد.

ولو عدنا للبدايات الأولى، وقبل سكان وادى النيل وسكان صحراء مصر الغربية، هل كانت رحلة بنى البشر وصراعهم من أجل السيطرة على الحيوان والنبات سهلة أم صعبة؟.

تخبرنا مسيرة التاريخ أن الإنسان عانى كثيرا فى فجر الحياة، فلم تكن السيطرة على الحيوان وهزيمته بالسهولة الممكنة. فقد ظل الإنسان ينهزم أمام الحيوان، لكن هذه المعاناة جعلت الإنسان يثابر إلى أن هزم الحيوان الهزيمة النهائية باستئناس القطعان البرية وتدجينها. وبدأت مسيرة

البشـر فى صنع الحضارة الإنسانية، وبدأت الثورة الزراعية التى هيأت لمجتمعات إنسانية حضرية، وبدأ الإنسان فى صنع نظم وقوانين لجعل الحياة أكثر أمنا وأكثر سهولة، بل أكثر متعة. ولا ننكر أنه فى البدايات الأولى وكثرة الصراع بين الإنسان والحيوان جعل البعض من البشر يرثون بعض صفات الحيوان أو يتصرف كالحيوان البرى بين أقرانه، بل ويسن قوانين تقنن حق المنتصر بأن تجعل القوة فوق الحق والعدل وليس العدل أسـاس الملك، بل يصـل الأمر إلى تحليل تلك الممارسـات بقوانين مثل تحليل الرق وتحليل الغنائم مِن بين مَن خسـر المعركة، ويصل الأمر أن يرضى البشـر بأن يتحول جزء منهم إلى عبيد تباع وتشترى. حدث هذا فى عصور ما قبل التاريخ وفى العصور الوسطى، وحدث هذا أيضا حديثا خلال الحربين العالميتين الأخيرتين. ولكن بعد طول معاناة تعلم البشـر الدرس، وتلك المعاناة جعلت الإنسان يصنع النظم والقوانين التى تحمى آدميته مثل قوانين حقوق الإنسـان، والعدل أساس الملك، ونشأت الأمم المتحدة وانبثق عنها مجلس الأمن ومحكمة العدل الدولية وسائر المنظمات الدولية، وأخذ الإنسان يحاول أن يكون لحياته هدف نبيل وأكثر أمنا، وأكثر سهولة وأكثر متعة، وتصاعد طموح الإنسان كى يحقق حلمه وأمله القديم فى الخلود.

يقول الفيلسـوف الفرنسـى جان بـول سـارتر Jean Paul Sartre (١٩٠٥- ١٩٨٠) «إن تاريخ البشـرية يتلخص فى محاولة الإنسـان أن يكون إلها خالدا». ورغم شهرة سارتر كفيلسوف وأديب وكاتب مسرحى وناقـد اجتماعـى، فإن أبرز ما يميـزه هو طرحه لنظريـة «الوجودية»، وارتباطها بشكل كامل به، كأنهما وجهان لعملة واحدة، فالوجودية هى

جان بول سارتر وجان بول سارتر هو من عرف الوجودية. والوجودية هى فلسفة تقوم على نظرة إلى الإنسان الفرد ترى أن «وجوده» هو أهم صفاته، وأنه غاية بذاته، ولا أهداف لما وراء وجوده، بل هو الذى يحدد أهدافه بنفسه. وتؤكد من جهة أخرى أن حرية الإنسان مطلقة ولا حدود لها. وقد أثرت فلسفة سارتر الوجودية فى معظم أدباء عصره، ومنح جائزة نوبل فى الأدب عام ١٩٦٤ لتعترف البشرية بفضله فى تطوير الفكر البشرى. وقد ساهم أيضا فى إعطاء الجزائر استقلالها ووقف أمام حركة بلاده الاستعمارية وكان قوله المشهور «السلام هو الحرية».

العالم المصرى د.أحمد شوقى فى كتابه «هندسة المستقبل» يقول إن القرن الحالى هو قرن الإنسان العاقل، ويرى أن الإنسان حتى الآن لم يصل إلى العقل. وفى سرد فكرته يستطرد قائلا «لقد كانت كل دعوة للحق والخير والجمال دقة على جدار البيضة التى تحبسه مثل الكتكوت فى البيضة، فهى تهدده وتهددنا معه بالاختناق، نحن ندق الجدار بعنف لأننا فى لحظة حرجة قد يتم الخروج بنا وبه، من هذه الحياة التى سئمناها أو ندمر اللامعقول فى ترسانات السلاح وآليات التخلف فى عالمنا». فهل الخروج من هذه البيضة سوف يُحول البشرية المتخلفة إلى الإنسانية العاقلة. لقد كانت كل دعوة للحق والخير والجمال هى دعوة لاعتلاء الإنسان العاقل ناصية الحكم، لنرى عالما جديدا. ويقول الطبيب والفيلسوف المصرى د. يوسف إدريس «لماذا أصر هذا الإنسان على الدق والدق لكسر الجدار وهو لم يكن يعرف أنه جدار؟ وأن خارجه كل ذلك النور والاتساع؟ أهى قوة مجهولة بداخله كانت تعرف ؟».

عصر العلم

إن العصر الحالى هو عصر انتصار العلم والتوعية البشـرية بطريقة لم يسبق حدوثها. وكيف لا وأدوات الإنسانية الآن غير مسبوقة. فهل نعلم أن أكثر من ٩٠٪ من العلماء عبر تاريخ البشـرية الطويل هم من الأحياء الآن ويعيشـون بيننا؟! وهل نعلم أن البشرية تملك الآن ذاكرة أقوى من ذاكرتها الشـخصية بعدة ملايين بل المليارات مـن المرات، وهى ذاكرة الكمبيوتر؟! والقادم من جيل الكمبيوتر المسمى بالنانو أو الكوانتم كمبيوتر سوف يجعل كمبيوترا واحدا من النوع الجديد له ذاكرة تفوق ذاكرة كل أجهزة الكمبيوتر الموجودة حاليا فى العالم. وعليه يستمر التقدم والتطور بصـورة مذهلـة على كل الجبهـات والجهات، إلا جهـة واحدة وهى منطقتنـا العربيـة، لكونها المنطقة غير المتحضرة نسـبيا بالمقارنة بباقى أجزاء المعمورة، فما أسباب ذلك من وجهة النظر الفلسفية والعلمية؟.

نحن فى أمس الحاجة الآن، وفى هذا الوقت بالذات وبعد ثورة يناير، إلى كلام مختلـف عـن السـائد، إننا نحتـاج ليس فقط لـكلام جديد، بل لفكر جديـد، ونـوع من نمط الحياة جديد. حتى نتكيف وننسـجم ونلحـق بباقى سـكان المعمـورة، الذين يسـتخدمون الآن تكنولوجيات تفوق خيال البشـر. إننـا محتاجون للتكلم عن الفضـاء الفكرى المحيط بنا، وعن آفة التخلـف، وجرثومة الجهل، وغيرها من الآفات الكامنة والمتحكمـة فى مجتمعاتنا. إننا محتاجون لعقول جديدة غير هذه العقول المعطلة التى نملكها. لعلنا نجد حلا لبعض مشـاكلنا المستعصية وخاصة الفكرية منها، وبالتالى سـوف تحل باقى المشـاكل مثل العيش والحرية والعدالة الاجتماعية.

وهناك حقيقة لا شك فيها حسب الإحصاءات أن هناك نسبة فى مجتمعنا تصل إلى أكثر من ١٥٪ من البشر ذوى قدرات وذكاء عالٍ، بل فى أحيان كثيرة يكونون متفوقين على أقرانهم فى العالم المتقدم. هؤلاء يمكن لهم أن يحققوا طفرة حياتية فى مجتمعاتهم، لو توفر لهم المناخ المساعد لذلك، وهذا العدد يكفى لتغيير أى مجتمع أو منظومة مجتمعية فى غضون خمس سنوات على الأكثر، لكن للأسف الغالبية المتخلفة تمنع بل تدمر أى عمل يقوم به هؤلاء، وخير دليل على ذلك هو ما حدث أثناء الفترة التى تسمى فترة التحول الديمقراطى فى مصر بعد ثورة شعب مصر فى يناير ٢٠١١. فهل آفة التخلف ومستوى تواجدها فى مجتمع ما تساعد أحيانا على تأجيل الطفرة. هل تلك الآفة هى التى تحول المجتمع إلى مجتمع الفقر والجهل والمرض. هل آفة التخلف مرتبطة بالموروثات البالية وأفكارعصور الانحدار؟ أم هى مرتبطة بتقاليد العصور الوسطى المسيطرة على مجتمعنا حتى الآن، أو من البيئة وحرارة الجو وقسوة الأرض فى هذا الجزء من العالم؟ أم هى جينات قد ورثناها من أجدادنا الأعزاء على مر العصور؟ أم أن آفة التخلف لها علاقة بموضوع الخير والشر وتفضيل المتخلفين للشر عن الخير فى سلوكهم؟ وهل الحلول ممكنة أم مستحيلة؟.

من غير الممكن أن يكون تخلفنا وراثيا. لأننا أصحاب حضارات عظيمة سابقة. وغير ممكن أن يكون بسبب البيئة لنفس سبب نمو حضارات قديمة فى تلك البيئة. فهل الخير والشر والعادات والتقاليد هى من بين الأسباب فى شيوع هذا التخلف؟ وهل الحل يكمن فى العمل المثابر الطويل الجاد، وهل الدأب فى العمل الروتينى يمكن أن يساعد

علـى تطور هذا المجتمـع، خاصة إن كان له مردود مـادى جيد على حياتهم. إن الإنسـان الآلة - الذى يعمل ليلا ونهارا - يمكن أن يكون أفضـل السـبل والحلول للتغلـب على جزء كبير من هـذا التخلف. إن إلهام هؤلاء البشر بأن العمل سوف يساعدهم على العيش فى حياة أكثر رغدا، وأن الحياة تسـتحق أن نحياها لا أن نحاربها، وأنه من الأهمية إفسـاح المجال للإنسـان العاقل أن يبدأ مسـيرته فـى تعمير الأرض، ليـس لنا وحدنا، ولكن للبشـرية ككل. هل ذلـك يمكن أن يكون أحد الحلول المتاحة؟.

دائمـا ننحـاز للعلـم فى عصر العلـم ودوره فى فك شـفرة التخلف المجتمعى، لأن العلم فى هذا العصر هو السلاح الماضى والممكن حاليا.آن الأوان أن نتكيف وننسجم مع باقى سكان المعمورة.

OOO